طريق الإنسانية إلى الله

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

ماضى الانسانية مسافة شاسعة . بعيدة الآماد والأطراف . سواء حسبناها بالايام أو بالأماكن . بالانفس أو بالأوراق المكتوبة عنها . لن يكون الحساب إلا بالملايين وأضعاف الملايين .

ولكننا نحسب مع هذا أنها على اتساعها وامتدادها ، قابلة للتلخيص فى سطرين ، إذا كان لها معنى .

فإذا كانت حياة الإنسانية عبثا ، ولم يكن لها وجهة ولا نظام . فذلك مما يقال فى سطر واحد .

وإذا كانت ذات وجهة منظمة فهذه الوجهة تتلخص فى فكرة كبيرة وهذه الفكرة الكبيرة توضع فى كلمات معدودات . ولو بالعنوان .

هذه المحاولة هى التى حاولها عالم من أكبر علماء التاريخ فى زماننا ، أن لم يكن من أكبر علمائه فى جميع الأزمنة ، وهو الأستاذ « أرنولد توينبى » صاحب الكتاب المشهور المسمى « بدراسة فى التاريخ » .

بدأ المؤلف العلامة تأليف هذا الكتاب فى سنة ألف وتسعمائة وإحدى وعشرين ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بسنتين ، وأتمه وأصدر آخر أجزائه قبل ختام السنة الماضية ، فانقضى عليه فى تأليفه ثلث قرن كامل ، وتم الكتاب كله فى عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة ، ولم ينته من أجزائه الأخيرة حتى بدأ له أن يعيد النظر فى بعض الآراء التى ظهرت فى الأجزاء الأولى ، ولكن المهمة شاقة والتكاليف كثيرة ، فتبرع له

بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة للسياحة فى مواطن الحضارات الدائرة والاقامة حيث تلزم الاقامة زمنا بين آثار المكسيك والشرقين الأقصى والأدنى ، ولا تنتهى هذه السياحات التاريخية قبل سنتين من ظهور آخر جزء فى الكتاب .

مجهود من مجهودات الجبابرة وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الانسانى من مبتدئه إلى عصره الحاضر ، أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ ثم استخراج الفكرة التى تتجلى فيه عصرا بعد عصر وحضارة بعد حضارة ونزاعا بعد نزاع وسلاما بعد سلام . وهذا هو الذى سميناه تلخيص التاريخ الانسانى فى سطر أو سطرين . فما هى الفكرة التى يلخصها السطر والسطران فى رأى هذا المؤرخ الكبير ؟ ماهو الرأى الذى يراه فى تاريخ الانسانية أحق علماء التاريخ بابداء هذا الرأى فى القرن العشرين .

خلاصة هذا الرأى سطر واحد وهو « أن التاريخ هو طريق الانسانية إلى الله » .

هذا هو الاجمال الذى شرحه المؤرخ الكبير فى سبعة آلاف صفحة وقرر فى ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والاخلاق لامعنى له إن لم يكن معناه هداية النفس الانسانية إلى حرية الضمير برعاية الاله .

فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة . فإنما تأتى لترفع فى الطريق مصباحا صغيرا أو كبيرا ينير الطريق وينير ساحة الكون كله للعلم بحقائق الوجود ، أو للعلم بحقيقة الحقائق وهى مصدر الخلق والتدبير فى الوجود .

ومن تقريرات المؤرخ الكبير أن الانسان قد يصطنع الأعمال والحرف ويخلق العلوم والمعارف ولكنه لايخلق عقيدته الدينية بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره ، قابلة للبحث فى بعض جوانبها غير قابلة لشىء سوى التسليم فى جوانبها الكبرى ، ولهذا تسخره العقيدة ولا يسخرها كما

يهوى ، وان خيل إليه أنه يعمل فى تسخيرها بهواه .

وضرب المثل لذلك بعقيدة الاسلام : أراد الفرس الذين دخلوا الاسلام أن يستخدموها فى احياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هى فى توطيدها ودراسة معارفها ، وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرق ليقيموا « سلطنتهم » على أركانها فأصبحوا حراسا لتلك الأركان ، ولا يتأتى تسخير عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل فى تاريخ الانسانية ، فليس أقوى من الايمان على تسيير الانسان والارتقاء به على معارج الحضارة فى طريقه إلى الله .

وعند العلامة « توينبى » أن هذه المهمة الأبدية مهمة « تعاون » بين الحضارات والعقائد ، يؤدى كل منها بعض الواجب لتحقيق الواجب كله فى النهاية ، ولكن هذا الواجب الكبير يكبر مع الزمن كلما كبر الانسان ، فلا يزال الانسان فى سعى متواصل ، ولا يزال متطلعا إلى الكمال .

وستأتى القرون بعد القرن العشرين فلا تذكر منه أنه قرن الصناعة الكبرى ولا أنه قرن الطيارة وعجائب المخترعات .. كلا .. بل لا تذكر منه أنه قرن الذرة والقذيفة الذرية . وإنما تذكر أنه القرن الذى أصبحت فيه الدعوة إلى « الاخوة الانسانية » موضوعا من موضوعات العلم والعمل ، وبرنامجا من البرامج الواقعية التى يتعاون عليها الأقوياء والضعفاء ، ولا يستغنى فيها قوى عن ضعيف .

هذه هى أمانة الماضى لدى القرن العشرين فى رأى مؤرخ القرون والأجيال ، فما هى أمانة القرن العشرين يا ترى لدى القرن الحادى والعشرين أو الثانى والعشرين أو ما يلى من القرون ؟

هل جاء القرن العشرون يا ترى ليحمل لها الهلاك والدمار فى قذائفه الذرية أو جاء لها بمصير أكرم وأسلم من هذا المصير ؟

وهنا ننتقل من ماضى الإنسانية إلى مصيرها ..

ننتقل إلى المصير بمثل السرعة التى انتقلنا بها — مع العلامة توينبى — فى مواضى الانسانية جميعا إلى وجهتها المرسومة .

ولكننا لا ننتقل الآن فى صحبة توينبى ودراسته التاريخية . بل ننتقل بين الحاضر والمصير فى صحبة المئات من المتسائلين الحائرين ، وان العلماء بين الحائرين لأكثر من الجهلاء ، وان

الحكماء لا كثر من الحمق .

مئات من الناس يتساءلون اليوم : ما مصير الانسانية ؟

وكلما حدث حادث فى كتلة الشرق أو كتلة الغرب عادوا إلى السؤال المتكرر المتحير : ما مصير الإنسانية .

هل تنفجر براكين الحرب العالمية ؟

وإذا انفجرت هذه البراكين فهل يستخدمون فيها القذائف الذرية ؟

وإذا استخدموا فيها هذه القذائف الجهنمية فما نتيجتها بالنظر إلى المنهزمين؟ وما نتيجتها بالنظر إلى المنتصرين ؟ وما نتيجتها بالنظر إلى سائر الأمم التى لا تحسب مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ؟

بل يتساءل المتسائلون المتحيرون : هل يكون فى تلك الحرب المرهوبة منتصر ومنهزم ؟ وهل تبقى من الدنيا بقية تساوى بمن النصر وتكافىء وبال الهزيمة ؟

ويحق للمتسائل العالم قبل الجاهل ، والحكيم قبل الأحمق ، أن يحار فى العاقبة وأن يفزع من المصير .

فمن المتفق عليه أن قذيفة «هيروشيما» تعد سلاحا مأمونا بالقياس إلى القذائف المجهزة للاستعمال فى الوقت الحاضر . فان لم تكن هذه القذائف مجهزة فعلا فى الإمكان أن تجهز القذيفة التى تساوى فى قوتها خمسة وعشرين ألف ضعف وزيادة ، من قذيفة هيروشيما .

ومن المتفق عليه أن أخطار القذيفة الجهنمية لا تنحصر فى موضعها ، ولا فى المقصودين بها ، لأنها ترسل فى الهواء ذرات من القـــوة الاشعاعية تعود فتنحدر إلى الأرض غبارا صاعقا لا يبقى ولا يذر .

ومن المتفق عليه أن مجال الاختراع متسع متجدد ، وأن القذيفة الهيدروجينية ستتبعها أنواع شتى من القذائف ، وأن استخدام العناصر الأخرى فى توليد الطاقة الذرية قد يتيسر غدا لأمم كثيرة ولن يكون استخدام هـــذه الطاقة مقصورا على عنصرين أو ثلاثة . . ويومئذ تقل تكاليف القذائف وتتسع ميادينها وتتفاقم أخطارها ، وتصبح القذيفة الموجودة اليوم كأنها سلاح الامس بالنسبة إلى أسلحة القرن العشرين .

ما مصير الانسانية بعد هذه النذر والأراجيف ؟

لا فائدة من منع السلاح ، بل الفائدة المرجوة كلها معلقة فى رأى الخبراء على منع الحرب بأنواعها ، أو منع الحرب بكل ما يستطاع .

فهل منع الحرب العالمية مما يستطاع ! وإذا لم يكن مستطاعا فهل يستطاع منع السلاح

الذرى وتحريم القذائف الذرية فى جميع الميادين !

ان سوابق الدول فى الحروب لا تبشر بالخير ، ولكن سابقة واحدة يرجى أن تبعث التفاؤل فى نفوس طلاب الخير ، وهى تحريم الغازات السامة وإجماع الدول على اجتنابها فى الحرب الأخيرة . فاذا كانت الدول المقاتلة قد فهمت أن الغازات الخانقة خطر لا يؤمن فهى أحرى أن تفهم الخطر الأكبر ، وأن تحرص على اجتنابه حرصا أشد وابقى من حرصها على اجتناب تلك الغازات .

وعبرة أخرى قد تميل بالدول إلى الحذر من الحروب ، وهى خسارة المنتصرين فى الحروب واضطرارهم إلى معونة المنهزمين والمنكوبين ، فى عالم متشابك متضامن ، لا ينفرد فيه بالضرر صاحب قوة أو صاحب مال .

ونكاد نقول أن ساسة الدول يدفعون بالأمم إلى الانتحار إذا أقدموا على الحرب العالمية واستخدموا فيها القذائف الذرية . . ومتى استطاع ساسة الأمم أن يدفعوا بها إلى الانتحار فهم والأمم التى تطيعهم أهل للهلاك والدمار .

إن الصورة التى تتمثل لنا أبشع من أن تتصورها قياسا على ما عرفناه من كوارث الماضى والحاضر . ونكاد تخرج بنا من حيز الواقع إلى حيز الخيال المستحيل ، ولو أن صورة تستحيل فى العقل لفرط بشاعتها لاستحالت هذه الصورة المنكرة ، ولكن البشاعة المفرطة لا تمنع شيئاً أن يكون إذا كان وقوعه من الممكنات وكل ما لدنيا من اسباب الطمأنينة أن نقارن بين المصيرين أيهما أقرب إلى الإمكان : مصير الانسانية إلى الانتحار أو مصيرها إلى التغلب على قوة السلاح بقوة الحكمة وقوة الأخلاق مجتمعين .

ومن حسن الرجاء وحسن التقدير معنا أن نرجح المصير المأمون على المصير المحذور .

إن المادة الصماء لم تخلق الإنسان . لأن الشىء لا يخلق ما هو أحسن منه وأكمل . فلنعد إلى خلاصة التاريخ الإنسانى متفائلين : ان التاريخ الانسانى كما قال أكبر المؤرخين العصريين — انما هو طريق الانسانية إلى الله . وفى هذا الطريق يستطيع العقل أن يخلق اختراعا من جنس القذيفة الذرية يقاومها ويكبح شرورها ويستبقى منافعها ، ويستطيع العقل أن يأخذ بزمام المادة وعناصرها ليقترب بها إلى الله .